

موقف الفزالي من علم الكلام حسين آشتياي

نتناول في هذا المقال موقف ابي حاصد محمد بن محمد الفزالي من علم الكلام، ويادى بدءاً، يحار الانسان عندما يقرأ كتب العلماء المعاصرين المختمين في ناحية من نواحي الشقافة الخاصة بموضوع من المواضيع او شخص من الاشخاص، كيف يخطئون فيما لا ينبغي، لان الخطأ بسيط ولكنه واقع . والخطأ الصغير يصبغ كبيراً اذا كان قد صدر من العلماء الكبار. وبناءً حكم عظيم على خطأ بسيط يكون اكبر من الخطأ نفسه . وان كان من المحال ان لا يخطئ الانسان، وان الخطأ معفو عنه حتى في جلائل الاعمال .

وهذا هو حال الانسان عندما يصحح خطأ الآخرين فيقوم الآخرون بدور التصحيح لخطائه وهكذا دواليك .

لقد كان أشر الفزالي كبيراً في العالم الاسلامي وغيره ، مما جعل الذين يكتبون عن الاسلام بعده يستعظمون موقفهم، واذ كانوا قد عزمنا على ان نتناول جانباً واحداً من فكر الفزالي لتقويمه، فانتنا نجدون مضطربين الى التعرض لكثير من مواضيعه، اما بايجاز او بصفة غير مباشرة .

جرت العادة ان يتناول الباحث مؤلفات عالم من العلماء بالترتيب اذا ما أراد ان يتبع آراءه وتطور فكره وتعامله مع المنطق الفلسفي لاستعماله في ابداعه او جدله . وكان غرضنا ان نتبع هذا النهج

١ - قول الشافعي وهو : "لأن يلقي الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من ان يلقاه بشيء من علم الكلام . ولقد سمعت من حفص كلاما لا اقدر أن أحكيه" (٢) .
٢ - وقال الشافعي أيضا : قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت ان المسلم يقوله .

٣ - وقال كذلك : "إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى او غير المسمى فاشهد بأنه من اهل الكلام ولا دين له" .
٤ - وقال : "حكمت في اصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واخذ في الكلام" (٣) .

هذه جملة من الاقوال المروية عن الامام الشافعي في ذم الكلام . والانسان كما يقال عدو بما جهله ، وقد يكون جهله مدعاة للنزاع والخمام ، ومن المعروف ان الامام الشافعي كان اماما في الفقه واصوله ، ولا شك انه تعرض في كثير من الاحيان الى اسئلة محرجة ممن اشتغل بالعلوم العقلية الفلسفية او سمعها ، وهو امر قد يدعوه الى موقفه ذاك من علم الكلام .

وما يرويه الزبيدي عن الشافعي من انه قال : "ان اهل الكلام يقولون لمخالفة كفرت وكان ينبغي ان يقولوا : اخطأت" قول صحيح (٤) ، ومنهج علمي سليم . ومع ذلك روي عن الامام الشافعي نفسه بانه قال لمخالفة حفص الفرد : "كفرت بالله" عندما قال هذا الأخير "خلق القرآن" . وكان عليه أن يقول له اخطأت لا كفرت .

وبالرغم من تكفير الشافعي حفص الفرد ، فان هذا الأخير عباده

في درسنا للكلام عند الغزالي . ولكن ما دام هو نفسه لم يذكر كمال تأليفه بالترتيب الزمني ، وما دام لم ينشر تلك التأليف حسب كتابتها ، فانه يصعب على الانسان أن يتخذ الترتيب الزمني اساسا له في الكتابة عن المؤلف . ومن حسن حظنا أن الغزالي كان قد ضمن افكاره في تضايف مؤلفاته ، مما سهل علينا معرفة ترتيب مؤلفاته زمانيا (١) .

يفرض موقف الغزالي من علم الكلام ، وما استفاده منه ، واستخدامه للشقافة العقلانية والجدل المنطقي الكلامي فيما كتبه ، واستعانت به في تعبيره السهل عن المعنى الذي أراد بيانه للناس ، بحثا طويلا يشمل كل ما كتبه الغزالي بصورة جدلية كلامية ومنطقية ، سواء فيما كتبه للعوام او الخواص . ولذلك نحصر بحثنا في عداوته لعلم الكلام ، ونحاول تفويص اقواله وايضاها ، مستندين على ما وصلنا اليه من المعارف التاريخية والاجتماعية والعلمية .

هاجم الغزالي علم الكلام لانه في رأيه سم ، وانه غير جائز ، وانه لا يقبل الا كما يقبل السم الذي يداوي بعض الاضرار التي لا تداوى الا به . واستند الغزالي في ذلك على اقوال السلف ومن سبقه من العلماء والائمة أولا ، ثم استرسل في الطعن معتمدا على مشاهدته وتجربته الشخصية ثانيا .

نبدأ بمنقولاته عن السلف ، وهي الاقوال التي هاجموا فيها علم الكلام ، فنحللها ، ثم بعد ذلك ننتقل الى اقوال الغزالي المناهضة لعلم الكلام .

١- الاقوال التي نقلها الغزالي عن السلف في الطعن على علم الكلام .

تعمق فيه الغزالي نفسه بصورة فلسفية وكلامية في كتابه المقصد الاسنى في شرح اسماء الله الحسنى (٧) . ألم يخالف الغزالي قول الشافعي وان كان يوافق في دمه لعلم الكلام ؟ وكيف يورد قول الشافعي في طعنه على هذا العلم حجة له ثم هو نفسه يتعمق فيه ؟ ألم ير الغزالي نفسه يذم امامه الشافعي ؟ ولماذا لم ينقض قول امامه لثلا يدخل في ضمن من ذمهم ؟ فهل كتابته للعوام هي التي دفعت به الى ذلك ؟ ام كان يرخي الكلام على عواهنه فوق في تناقض ؟

وبالرغم من هذا الموقف الغامض فان الذين جاءوا بعد الغزالي استندوا كلامه الى يومنا هذا و اضافوا اليه دون تمحيص وتحقيق .

صحيح انه نقل الكثير عن الشافعي في علم الكلام ، ولكن هل كانت تلك الاقوال فعلا هي للشافعي ؟ هل الذين رووها عنه اخذوها فعلا منه ؟ فالزبيدي مع اطلاعه الواسع لم يتطرق في شرحه على الاحياء الى اقوال الشافعي مما كتبه هذا الاخير . ومع ذلك استحسنت تلك الروايات وتقبلتها دون تحليل او تمحيص (٨) .

ب - رواية الغزالي عن الامام احمد بن حنبل .

نقل الغزالي عن ابن حنبل اقوالا منها :

١ - قال ابن حنبل : " لا يفلح صاحب الكلام أبدا ، ولا تكاد ترى احدا نظرت في الكلام الا وفي قلبه دغل " .

٢ - وقال للمحاسبي مع زهده وورعه ، لانه صنفا كتابا في الرد على المبتدعة : " ويحك ! ألمت تحكي بدعتهم اولا ثم ترد عليهم ؟ ألمت تحمل الناس بتمنيك على مطالعة البدعة والتفكير في تلك الشبهات

أيام كان مريضا^(٥) ومعناه انه ظل يكن له الاحترام بالرغم مما وقع ، اذا صحت هذه القصة ، لان الامام الشافعي مات في مصر وحضر رحيل عنها الى بغداد ليتلمذ على ابي يوسف تلميذ ابي حنيفة (٦) .

ويفهم مما سبق ان اقوال الشافعي ان صدرت منه حقيقة ، كانت على حالات وظاهرة غير هادئة .

والموضوع كما يبدو شائك يحتاج الى بحث خاص . والواقع ان مثل هذه الاحكام الصادرة في حق علم الكلام لا تناسب موقع هذا العلم من الديانة الاسلامية . كما دل على ذلك ازدهار هذا العلم بعد الشافعي والغزالي . لم نجد باحسا اهتم بموقف الشافعي من علم الكلام ، فحلله وعلله ، خصوصا وان الرجل ، كما هو معروف ، كان مؤسس مذهب فقهي دقيق في المسائل الفرعية . وكيف يحكم ويمدر حكما بالتكفير والتفليل ، دون الاستناد الى الآيات والاحاديث المتواترة . الا يكون هذا الموقف غريبا ؟ ألم يسمع قول النبي (ص) " هل شققت قلبه " ؟ . من القريب ان لا يتنبه الباحثون الى هذا الامر ، فيتهمون الشافعي بانتقاده علم الكلام وتكفير اهله . والا فكيف يفسرون نشأة وتطور هذا العلم حتى اصبح دعامة من دعائم الاسلام . واذا حدث من الشافعي ما ادعوا ، الا يكون هذا الاخير قد اخطأ خطأ كبيرا ؟ وكيف يحدث منه ذلك وقد كتب في علم الكلام كتابين ، وهو من أوائل المتكلمين من الفقهاء واصحاب المذاهب مثل ابي حنيفة ؟ . على المختصين ان يفكروا في امثال هذه الحالات .

والامام الشافعي ، يجعل من المتكلمين عن الاسم والمسمى والتفريق بينهما أو جعلهما شيئا واحدا ، اما كفرة او ضالين . وهو موضوع

فكيف يمنع غيره من مثل فعله ؟ ألا يكون من الذين يقولون قولا ويعملون غيره ؟ ألم ينقل هو نفسه اقوال البدعة والجهمية ليرد عليهم ويدحض اقوالهم ؟ . ان عمله هذا يبين ان ما نقل عنه انما كان بهتاناً وزوراً اسنده اليه من هاجم الكلام ، وارانوا بذلك ان يبلغ ادعواؤهم مبلغه بحججته ومكائنه .

ج - ونقل الغزالي عن الامام مالك من ذلك قوله :

- ١ - "أرايت ان جاءه من هو اجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد؟ يعني ان اقوال المتجادلين تتفاوت".
- ٢ - ونقل عنه : " لا تجوز شهادة اهل البدع والاهواء ". فقال بعض اصحابه في تأويله انه اراد باهل الاهواء اهل الكلام على اي مذهب كانوا (١٤) .

يحلل الزبيدي اقوال الامام مالك برواية تأويل بعض المالكيين على ان مالكا قصد بقوله : لا تجوز شهادة اهل البدع والاهواء ، اذا كانت بدعتهم تخرجهم عن الدين .

نعتقد ان فهم هذا القول لا يمكن ان يتم الا اذا وضعناه في اطار تناقض العلماء فهم كأهل المنازع الأخرى ، واذا كانت شهادة هؤلاء لا تجوز خوفاً من دافع الحمد فلماذا لا نقول نفس الشيء بالنسبة للعلماء، ونعتقد ايضا ان البحث الصحيح يدعو ناقلي تلك الاقوال، وهي اقوال لا سند لها ولا دليل ، الى عرضها للنقد والنظر ، لان هؤلاء الاثمة الكبار ، كانوا يدققون ويحققون المسائل الفرعية الجزئية المتغيرة ، ويشقون الشعرة اربعين مرة ، للوصول الى اليقين والحق ، ويسهبون ليالي حتى يصلوا الى الفهم الدقيق لثلا يخطئوا في

فيدعوهم ذلك الى الرأي والبحث .
٣ - وقال احمد رحمه الله : علماء الكلام زنادقة (٩)

هذه بعض نقول الغزالي عن ابن حنبل دون ذكر لمصدرها، وهو اهمال وقع من الشارح الزبيدي ايضا .

وليس غريباً ان تصدر مثل هذه الاقوال عن الامام احمد بن حنبل لانه قد لاقى ما لاقى من الاذى والعذاب مدة خمس عشرة سنة ، بسبب تمسكه بعقيدته ، مما جعل خصومه يحملون عليه حملاً ويتسبون في سجنه وتعذيبه . وكان هؤلاء قد سموا انفسهم متكلمين ونهضوا بنشر الفلسفة والجدل الفلسفي الذي كان جديداً في نظر الناس ودخلاً في العالم الاسلامي . ومن الطبيعي ان يهاجم ابن حنبل اناساً آذوه وناصروه العداء ، وقد اذن الله بدفع الظلم على من وقع عليه دون السب والشتم ، في قوله تعالى : " ان الله لا يحب الجهر بالسوء من القول الا من ظلم " (١٠) . وقوله تعالى : " فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به " (١١) . وقوله تعالى : " فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم " (١٢) .
استجابة لتلك الفطرة البشرية مع التحديد والشروط .

ومن هنا نعرف السبب الذي ساق الامام احمد بن حنبل الى تلك الاقوال ، ان كانت نسبتها اليه صحيحة . ومع ذلك فانه كان أقل تشدداً من الامام الشافعي . وما جاء عن الامام احمد من قوله للحارث المحاسبي الذي كان يناصر عقيدة اهل السنة ، بانه ينقل آراء اهل البدعة واهل الكلام ويذكرها للناس ويرسخها في اذهانهم ، اثناء الرد عليهم ، وانه لامه في رواية اقوالهم التي لا تجوز روايتها بأي وجه من الوجوه ، امر يدعو الى العجب ، اذ احمد بن حنبل نفسه كتب رداً ونقضا على اهل البدعة والجهمية (١٣) .

او ينقلون ، ويتناقضون في رواياتهم . ولماذا لم ينتبه الزبيدي الى ما وقع فيه من التناقض ؟ فانه يروي أن أول متكلم بين الفقهاء هو ابو حنيفة ، ثم يقول ان ابا حنيفة كان يرى علم الكلام حراما . لو كان الزبيدي يميل الى علم الكلام لاعطى لنفسه متسعاً من الوقت ليتحقق من منقولاته . فالمشكل أساسي في الشقافة الاسلامية ، وله تأثير كبير في تكوين العقيدة والشخصية الاسلامية ، فما كان له ليستبين به . وهذا نموذج من نماذج الاحكام التي تفرض علينا أن نعود الى الشقافة الاسلامية لتحقيق ونتحقق في كثير من مجرياتها وما اصاب البحث فيها من انحراف ووقع فيه من تناقض .

د - يستند الغزالي في هجومه على علم الكلام ، لينفر منه العامة والبسطاء، على ابتعاد المحابة عنه وعدم الخوض فيه يقول : "وقد اتفق اهل الحديث من الملة على هذا ، ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه وقالوا ما سكت عنه المحابة - مع انهم اعرف بالحقائق وافصح بترتيب الالفاظ من غيرهم- الا لعلمهم بما يتولد منه من الشر... وعلى هذا استمر المحابة ، فالزيادة على الاستاذ طغيان وظلم ، وهم الاستاذون (كذا في الاصل) ونحن الاتباع والتلامذة" (١٩) .

ولم يصف الشارح الزبيدي على هذا الكلام شيئاً ، عدا ايضاح بعض المفردات ، الا انه اقتبس قولاً من الغزالي في املائه على الاحياء ، بيدي فيه هذا الاخير رأيه المريح مرة ثانية ضد علم الكلام ، وهذا نصه :

المسائل الفقهية التي هي عرضة للتغير والتبدل كلما تبدلت الحال والبيئة . وكيف يحكمون على مخالفتهم في المسائل الاعتقادية التي يجب ان تستند على دليل قطعي الدلالة وقطعي الثبوت ، فيصدرون ضدهم احكاماً وكأنتهم جهلة . فلم لم يتأكد الناقلون لهذه الاقوال من ثبوت الرواية وصحة النسبة ، فثبوت النسبة ليس خامساً باقوال النبي (ص) وانما هو منهج علمي صحيح ينبغي ان يطبق على قول كل قائل .

ونشك نفس الشك في قولة الامام ابي يوسف التي هي : "من طلب العلم بالكلام فقد تزنق" (١٦) لان ابا يوسف هذا كان تلميذا لابي حنيفة صاحب علم الكلام .

يصف الزبيدي الى ما نقله الغزالي : "الى هذا التحريم ذهب الائمة الاربعة ، ابو حنيفة والشافعي ومالك واحمد بن حنبل وسفيان الثوري وابو يوسف وجميع اهل الحديث من السلف الصالحين" (١٧) دون تحقيق الرواية .

اليس عجيباً وغريباً ان يعد ابو حنيفة علم الكلام حراماً ، وهو ممن اشير اليه بالبنان من اهل علم الكلام البارعين البارزين فيه ؟ ألم يذكر الزبيدي بان ابا حنيفة كان أول متكلمي اهل السنة من الفقهاء ؟ (١٨) ثم انتقل الى الفقه ، ويعقلية الكلامية اصح اكبر فقيه وأول متكلم . وعلى هذا فابو حنيفة اما ان يناقذ نفسه ويتنكر لعلم الكلام كما تنكر الغزالي او يكون ما قيل عنه غير صحيح .

اما امثال الزبيدي فهم لا يتأملون ولا يفكرون فيما يكتبون

- ١ - قول الزمخشري في الفائق : اراد النبي (ص) النبي عن التمادي والتلاهي في القراءات المختلفة .
- ٢ - قول النووي : فيه كراهة التفعر في الكلام (٢٣) بالتشديد وتكلف الغصاحة واستعمال وحشي اللغة ودقائق الاعراب في مخاطبة العوام (٢٤) .
- ٣ - المراد بالحديث المبالغون في العبادة ، بحيث تخرج عن قوانين الشريعة ويستمرسل مع الشيطان في الوسوسة (٢٥) .
- ٤ - قال الحافظ بن حجر ، المحدث الكبير نقلاً عن بعض اهل التحقيق : ان البحث عما لا يوجد فيه نص قسمان : احدهما : ان يبحث في دخوله في دلالة النص على اختلاف وجوهها فهذا ما لا يلوب لا مكروه ، بل ربما كان فرضاً على من تعين عليه . وثانيهما : ان يدقق النظر في وجوه الفروق فيفرق بين المتماثلين بفرق ولا اثر له في الشرع مع وجود وصف الجمع او بالعكس ، ان يجمع بين متفرقين بوصف طردي ، فهذا الذي ذمه السلف وعابه ... ومثل الاكثار من التفرغ على مسألة لا اصل لها في كتاب ولا سنة ولا اجماع وهي نادرة الوقوع فيصرف فيها زمناً كان ليصرفه في غيرها اولى (٢٦) . ومنها ما (لا) يكون له شاهد في عالم الحس ، كالسؤال عن الساعة والروح ومدة هذه الامة الى امثال ذلك فبانها لا تعرف الا بالنقل المرؤ (٢٧) .
- ولا يوجد في شرح من هذه الشروح ما قصده الغزالي وانما اراد هذا الاخير بسردها التمحلل ليدم بذلك علم الكلام ، ولذلك لم يترك صغيرة ولا كبيرة الا وذكرها ليبلغ قصده . واذا كان يتهم الآخرين بالتقليد الاعمى ، فان ما يفعله هو لا يخرج عن التقليد الاعمى ، لانه قصد ان يحق ما اراد بأية وسيلة .
- ان اشتغال الناس بدم علمهم الكلام يغير الحقائق ، فكأن هذا العلم كان شراً مستطيلاً على اذهان العامة والخاصة ، وكأنه اصبح العلم الوحيد الذي شغل الناس دون غيره ، مع ان المتفحص للعلوم الاخرى كالفقه ،

انه (علم الكلام) علم لفظي واكثره احتمال وهمي وهو عمل النفس وتخليق الفهم وليس بنسخة المشاهدة والكشف بولاحظ هذا كان فييه الغث والسمين ، وشاع في حال المناضلة فيه ايراد القضي وما هو في حكمه من غلبة الظن وابداء المصيح والزام مذهب الختم (٢٠) .

ومن يعرف تاريخ الصحابة وظروفهم وما كانوا عليه من معرفته واطلاع ، وس يتذكر ما هو بديهى ، ان علم الكلام لم يبتأ بعد ، يجد القول بان المحابة لم يخوضوا في علم الكلام من باب السذاجة والاستخفاف ، والقول به مردود بوجهين : الاول ، كما قلنا ، تاريخى .

اي ان علم الكلام لم يبتأ بعد في زمانهم . ولو فرضنا انه كان موجوداً ، كانوا على اطلاع به ولم يريدوا تهليمه ، فلماذا اشتغل به الغزالي نفسه واساتذته هجرة المحابة وكانوا قدوة ، فلماذا اشتغل به الغزالي نفسه واساتذته الجويني قبله وزاد فيه ؟ ألم يخرج الغزالي بعمله هذا عن سبيل المحابة ؟ ولماذا اشتغل به السلف الصالح والائمة الكبار ، وزادوا فيه ؟ ولماذا يتعرض علم الكلام للهجوم دون غير ؟ اليس هذا خروج عن سبيل السبيل ؟

ذكر الغزالي حديثاً شريفاً عن الرسول (ص) اراد به دم علمهم الكلام والحديث هو قوله عليه الصلاة والسلام :

"هلك المتنظعون هلك المتنظعون هلك المتنظعون" (٢١)

اي المتعمقون في البحث والاستقصاء (٢٢)

ذكر الشارح الزبيدي في الحديث المذكور الكثير من اقوال العلماء ، ولم يكن فيها ما يشير الى ما قصده الغزالي ، اذ قصد هذا الاخير من الحديث المذكور ، ان التعمق في علم الكلام يسبب حلات الانسان ، وان كان استدلاله يدخل فيه ، ولو بصورة تمحلية وسعيدة وبشروط يضعها خصماء علم الكلام ، الا ان الشارح لم يذكر الا المعانى الاخرى التي لسببها علاقة بعلم الكلام مثلاً :

والعامي اذا خاض في علم الكلام والجدل فانه في رأي الغزالي لا يخرج منه فهو كالطين الذي يغرق فيه المتخبط فيه . انها نعمة الواعظ يتوجه بها الغزالي الى العامة وتثبيته علم الكلام بالخمير يذكر بمرره الكثير ومنفعته القليلة، فكما ان الخمير قد ينقذ من موت العطش، وهي حالات نادرة كذلك الكلام قد يجوز تعلمه بمقدار علاجه . وربما وضع الغزالي مسؤولية فساد الامة على هذا العلم وبدونه لا يظهر الفساد في البر والبحر .

ومن يسمع قول الغزالي في الكلام، يعتقد ان هذا العلم هو شغل الناس الشاغل، وان العامة الذين لا يفهمون امورهم الدينية البدائية الا بصعوبة، اصبحوا يخوضون فيه ويذهبون كل مذهب . واذا افترض الغزالي خطر جدل اهل الكلام، فكان اولى به ان يمنح الفقهاء بتعلمه لحماية الشريعة، وقد فعل هو نفسه هذا . ولو كان صادقا، فلماذا لم يمنع الفقهاء عن الخوض في المذاهب الفقهية المختلفة، وقد كانت سببا في اراقة الدماء .

كان اثر الغزالي قويا، لانه كان يعرف طرق علم الكلام، وكان اثر الاحياء في الناس اكثر من اي كتاب من كتب الغزالي . وكان يرى في المتكلمين خطرا في مقاومة اهل الكشف والحقيقة كما يدعون، وقد ساعده هذا النهج على استمالة فئتين : الفقهاء واهل التصوف . وبالتالي العوام، لان العوام كانوا دائما اميل الى اهل الطرق، وبالتالي رأى في اهل الكلام خطرا آخر، اذ بإمكانهم ان يحولوا بين العامة واهل التصوف .

ويحق لنا ان نضع سؤالا آخر . لماذا لم يهاجم الغزالي بعض علماء الكلام لا علم الكلام ككل؟ ولماذا لم يهاجم بعض الفلاسفة دون الفلسفة كلها؟ ولماذا تسامح في اخطاء المتصوفة ولم يتسامح في اخطاء المتكلمين والفلاسفة؟ ولماذا لم ينتبه الغزالي

والتفسير وتاريخ الادب سيجد من اشتغل بهذا العلم اقل عددا ممن اشتغل بغيره، فلماذا كان علم الكلام هو المذموم؟ لقد كان العكس هو الصحيح، اذ وجود اهل الاهواء والفرق كان بالحري ان يدعو الى العمل بهذا العلم، ليكون سلاحا . غير ان الغزالي لم يكن رحما بالعقل مع انه جعله احيانا موازيا للوحي . فحارب الفلسفة عنها وسميتها، وهاجم علم الكلام ثم وصل اخيرا الى التصوف وهو قلبي لا عقلي .

ونجد الغزالي قد قسم الناس، فيما يتعلق بعلم الكلام، الى ثلاث طوائف :

أ- طائفة اعتقدت بفرضيته (٢٨)، وهم قليلون والرد عليهم كان سهلا عنده، ولذلك لم يشتغل بهم .

ب- طائفة اعتبرت تعلم علم الكلام حراما، واطال الغزالي في النقل عنها باسباب، واستشهد لها باقوال متفاوتة القيمة، ولم يشتغل نفسه بتحميص هذه الاقوال، وهذا ما قدمناه، وأشرنا الى ما فيه من الضعف والتحاميل والتناقض .

ج- طائفة شالته دافعت عن علم الكلام لتجعله مشروعاً مثل العلوم الاسلامية الاخرى كالفقه والتفسير والحديث واصول الفقه . وذكر الغزالي أدلتها دون تبنيها او الالتزام بها، بل وضعها موضع التساؤل لرفض مشروعيتها علم الكلام (٢٩) . وأخيرا رجح كفة الطائفة الثانية التي حرمت هذا العلم .

نتقل الآن من نقول الغزالي الى اقواله هو نفسه في موضوع الكلام . اسبب الغزالي القول في علم الكلام وغيره من العلوم الاسلامية في كتاب احياء علوم الدين، الذي وسمه البعض حقا بامانة علوم الدين، وفي غيره من الكتب، وكان التصوف عنده هو العلم الحقيقي الذي يكشف للانسان الاسرار ويوصله الى الله . وشبه الغزالي الكلام بالخمير، فكما ان هذه حرام لذاتها فكذا الكلام حرام لذاته، لانه يفسد اعتقاد السالم الاعتقاد، ويرسخ فساد من فسد اعتقاده قبل اطلاعه على الكلام .

الى ان علم الكلام هو الذي ساعده في بلوغ ما بلغ من اسرار الكشف ولماذا لم يبر في علم الكلام ما يشهد الذهن فنفسه نمفا ؟ ولماذا هاجم علماء الكلام مع انهم كانوا اكثر تواضعا من اهل الكشف الذين يدعون معرفة الاسرار الالهية ؟ أنسي الغزالي ان الاسول من اعمدة العلوم الاسلامية وهي عبارة عن علمين : اصول الدين ، وهي بالضبط علوم الكلام ، واصول الفقه . ولا شك ان هذين نالا عناية عند علماء الاصول وكانوا متكلمين في نفس الوقت ؟ قد يقال ان الغزالي لم يمنع هذا العلم، ولكنه كان فيه متشددا اذ فرض في من اراد الاشتغال به ان تتوفر فيه الشروط التالية :

ا - التجرد للعلم والحرص عليه .

ب - الذكاء والفطنة والفصاحة ، فان البليد لا ينتفع بفهمه والقدم كذلك .
ج - ان يكون في طبعه الصلاح والديانة والتقوى ولا تكون الشهوات غالبية عليه (٣٠) .

ولكن ، لماذا خص هذا العلم وحده بهذه الشروط، وهي شروط لازمة لكل علم ؟ .

كان يودنا ان نتناول كل سؤال من هذه الاسئلة بالدرس والتحليل ، ولكن المناسبة والزمان لا يسمحان بذلك، غير انه يمكننا ان نقول بان تاثير الغزالي كان كبيرا في المجتمع الاسلامي . ولكن ما هي عواقب هذا التأثير ؟ لقد جعل الغزالي الفردية الصوفية اقصى الغايات، ودعا الناس الى ترك العلوم والانتساب الى الصوفية التي يحدثون فيها اسرار العلوم العالية . قد يكون هدفه من ذلك اصلاح الافراد واصلاح المجتمع، غير انه لم يوفق في ذلك ، اذ الواقع التاريخي يشهد انه اخطأ التقدير، فلم يملح المجتمع بالتموف الفردي الاناني ، وسقطت الخلافة العباسية بعد مرور مائة وخمسين سنة على محاولته ، مع ان تاثيره ظل قائما . ولو كان هذا التأثير يمثل الاسلام الحق، ما كانت الخلافة الاسلامية لتندحر وتتهاوى .

١ - صرح الغزالي في الاعتقاد بقوله : وقد استقمينا تحقيق هذا المعنى في الكتاب الملقب بالمتطهر المصنف في الرد على الباطنية :
(٢١٦ بيروت ١٩٦٩) ونفس العبارة موجودة في الاحياء ٢٧ / ١ ، كما انه ذكر الرسالة القدسية والاقتصاد في الاعتقاد المذكورين في الاحياء (١/٤٠ ، ٩٨) وذكر تهافت الفلاسفة في الاقتصاد في الاعتقاد ١ ، ٢

٢ - الاحياء ٩٥/١ . الزبيدي ، اتحاف السادة شرح الاحياء ٤٧/٢ ، قواعد العقائد للغزالي ، ٨٢ ، ٨٤

٣ - نفس المراجع ونفس الاماكن .

٤ - اتحاف السادة ٤٨/٢

٥ - نفس المرجع ، قواعد العقائد ٨٥

٦ - دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة ٤٧٢/٧

٧ - المقدم الاسنى ١٧ ، بيروت ١٩٧١ ، دار المشرق .

٨ - اتحاف السادة ٤٧/٢

٩ - الاحياء ٩٥/١ .

١٠ - النساء ١٤٨

١١ - النحل ١٢٥

١٢ - البقرة ١٩٤

١٣ - الامام احمد بن حنبل ، الرد على الجهمية والزنادقة . تحقيق د . عبد الرحمن عميرة ، الرياض ١٩٧٧ . وكتاب الرد على الجهمية لابي سعيد عثمان بن سعد الدارمي (ليدن ١٩٦٠) المتوفى ٢٨٢ هـ . وهناك كتب متعددة للرد على المبتدعة من المحدثين وائمة السلف .

١٤ - الاحياء ٩٥ ، قواعد العقائد ٨٧ ، ٨٨

١٥ - اتحاف السادة ٤٩/٢

١٦ - الاحياء ٩٥/١ ، قواعد العقائد ٨٨

١٧ - اتحاف السادة ٤٧/٢ ، ويذكر محمد موسى على في حاشية قواعد العقائد : وفي نسخة اخرى والى التحريم ذهب الائمة الاربعة ابو حنيفة والشافعي (٨٢)٠٠

١٨ - اتحاف السادة ١٤/١

١٩ - الاحياء ٩٥/١ ، قواعد العقائد ٨٨ ، ٩٠ ،

٢٠ - اتحاف السادة ٥١/٢

٢١ - معلم في القدر ٢٠٥٥/٤ ، محمد فؤاد عبد الباقي ، ابو داوود في السنة ١٢/٧ تحقيق حامد المقي .

٢٢ - الاحياء ٩٥/١ قواعد العقائد ٨٩

٢٣ - الكلام هنا المحادثة والخطاب ليس علم الكلام كما افاده النووي في اتمام كلامه ٢٨ .

٢٤ - ليس امثال هولاء الناس موجودين بين المنتسبين الى التصوف . وعلى هذا القهيم ، المراد بالحديث الشريف المذكور هم المتصوفة .

٢٥ - لماذا لا يكون علم الكلام من هذا القسم ؟

٢٦ - اليس هذا ينطبق على الفقهاء ايضا

٢٧ - اتحاف السادة ٥١/٢

٢٨ - احياء ٩٥/١ ، قواعد العقائد ٨٢ ، اتحاف السادة ٤٨/٢

٢٩ - احياء ٩٨/١ ، قواعد العقائد ٩٠ ، ٩١

٣٠ - احياء ٩٨/١ - ٩٩ ، قواعد العقائد ١٠٨ - ١٠٩